

في ذكرى ثورة الدستور 1948م (2)

عندما مارس الأئمة دور.. أبي رغال!

نواصل هذا الأسبوع الملاحظات النقدية على ما كتبه القاضي إبراهيم محمد الوزير تحت عنوان: قراءة غير متحيزة (!) في الثورات اليمنية.. وخاصة حول الأحكام غير الصحيحة حول دور الأئمة الهاديوية في مواجهة ما أسماها التدخلات الخارجية أو كما قال: «عندما كان يحصل أي (!) تدخل خارجي وغزو لليمن كان أئمة الزيدية وأتباعهم من الطائفة الزيدية المباركة باركهم الله وجمعهم مع أئمة آل الرسول المطهرين الذين قاتلوا معهم المعتدين على أرض اليمن الميمون فقد كانوا هم (!) الذين يتصدون لأي (!) تدخل خارجي في اليمن.. كانت الزيدية وأئمتهم من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلماؤهم وقضاتهم وكل العلماء والقبائل ومشائخ القبائل الزيدية يقفون صفا واحدا متلاحما لصد أي غزو ضد اليمن حتى سميت اليمن بمقبرة الغزاة بفضل (!) وجود أئمة الزيدية والطائفة الزيدية والفكر والفقهاء الزيدي المستقل (!)».

ناصر يحيى

وليا للعهد بدلا من ابنه الأكبر (المطهر) غضب هذا الأخير.. كان أعرج غير مؤهل للإمامة بحسب الشروط الـ14.. فخرج بطل الاستقلال عن طاعة أبيه، وكلاهما من أئمة الهاديوية وآل بيت الرسول وراح يحرض العثمانيين ضد أبيه وأرسل رسولا خاصا «لا شك أنه من الطائفة المباركة التي مدحها القاضي إبراهيم» إلى أويس باشا القائد الجديد للعثمانيين يحثه على محاربة أبيه الإمام شرف الدين والقضاء على سلطته في اليمن (وانعم والفكر والفقهاء الزيدي المستقل وانعم)

10. الشيعة الإسماعيليون أيضا سارعوا للاتصال بأويس باشا وضغطوا عليه ليشن الحرب على الإمام شرف الدين الذي اضطهدهم وشردهم من مناطقهم، ولجأ زعيمهم الداعي (محمد بن إسماعيل) إلى زبيد عند العثمانيين وظلوا دائما حلفائهم ضد الحكام اليمنيين المعارضين!

11. مناطق يمنية عديدة ثار فيها اليمنيون ضد الولاة الزيديين الظلمة وسارعوا للدخول إلى طاعة العثمانيين!

12. مع ظهور دلائل على قرب انهيار دولة الإمام شرف الدين أمام العثمانيين.. عرض الإمام وأبناؤه الصلح مع (المطهر) حليف العثمانيين وأسلموه السلطة العليا والحكم والحصون والمعدات.. فانقلب المطهر على العثمانيين وحاربهم، وفي الوقت نفسه وقف بعض إخوانه من أبناء الإمام شرف الدين ضد أخيه المطهر وتآمروا مع العثمانيين ضده وانهزم المطهر في إحدى المعارك بسبب انسحاب أخيه شمس الدين (وانعم والصف الواحد المتلاحم وانعم!)

13. عمل الأمير شمس الدين بين الإمام شرف الدين على الاتصال بالأمير (أزدر) في ذمار لتحريضه على مواصلة الحرب ضد أخيه المطهر.. كما كان علي بن الإمام شرف الدين يعمل أيضا - على الاتصال بالعثمانيين للانتقام من أخيه المطهر الذي أضاع عليه فرصة الترشح للإمامة! وتعهده (علي) بدفع مرتبات جنود الوالي العثماني لمدة سنة إذا تقدم إلى صنعاء لمحاربة المطهر!.

14. الأشراف بوجه عام وأشرف الجوف خاصة.. جاهدوا بعدائهم للمطهر بعد هزيمته في صنعاء أمام (أزدر) واتصلوا بالعثمانيين للتعاون معهم للقضاء على حكم الإمام شرف الدين واتفقوا سرا على إعاقة تقدم الأمير عز الدين من صنعاء إذا فكر في مساعدة أخيه المطهر! وصدق الأشراف وطائفهم المباركة في عهدهم وقاتلوا مع العثمانيين وهزموا عز الدين وأسروه ونفوه إلى إستانبول!

15. انتهت الحروب بين العثمانيين وحلفائهم من الأشراف وبعض أبناء الإمام شرف الدين من جهة وبين (المطهر) بصلح أبقاه في مناطقه التي يسيطر عليها مع اعترافه بالسيادة العثمانية، ولم يعجب هذا الصلح الأمير شمس الدين بن الإمام شرف الدين فحاول عرقلته فضغط على الوالي العثماني، ووافق (أزدر) على طلب شمس الدين بإرسال قوة عثمانية إلى أحد حصونه (شباب) للإقامة فيه.

17. وافق المطهر في بنود الصلح على الاعتراف صراحة بالدخول في طاعة العثمانيين وأن تكون (السكة والخطبة) باسم السلطان العثماني مقابل احتفاظه بأملكه الخاصة ما عدا مدينة (الطويلة) التي تنازل عنها للعثمانيين!
(نواصل في العدد القادم بإذن الله الحديث ذكر ملاحم أئمة اليمن في التآمر والاستعانة بالعثمانيين ضد بعضهم).



دري (رب) ليكون مرافقا للمماليك حتى كمران! وشاركهم في توغلهم داخل اليمن حتى وصلوا بسلامة الله إلى زبيد!

5. أبرز المعارك التي خاضها المماليك الغزاة، وفقا لتسمية القاضي إبراهيم، خاضوها ضد الطاهريين بينما كان المباركون وعلماؤهم وقضاتهم وأئمتهم ينفرجون.. وربما يدعون بالنصر للمماليك!

6. انفجرت الحرب بعد مقتل السلطان عامر بين الإمام شرف الدين والمماليك.. فانتصر الأول وخرج المماليك من صنعاء ليتحالفوا مع أشراف (!) الجوف وإمام (!) صعدة الحسن بن المؤيد وقرروا العمل جميعا ضد الإمام شرف الدين وبدأت حرب لمدة 15 عاما.

7. بعد انسحاب المماليك إلى المقراتنة استنجدوا بالمطهر بن شرف الدين بطل الاستقلال اليمني!!.. ضد الطاهريين فلم يخيب طلبهم فجاء وحارب الطاهريين واستولى على المدينة.

8. سقط حكم المماليك في مصر لصالح العثمانيين الذين وصلوا إستراتيجية المماليك في الحرص على الوجود في جنوب البحر الأحمر والسواحل اليمنية لمواجهة المخططات البرتغالية.. فلما جاءت الحملة العثمانية بقيادة (سليمان الخادم) سارع كل من الإمام شرف الدين وعامر بن داود حاكم عدن الطاهري بالاتصال بقائد غزو اليمن ليحرضه كل طرف على الطرف الآخر!

9. أثار اختيار الإمام شرف الدين لابنه علي

عبدالوهاب عن صد الخطر البرتغالي الذي بدأ بمهاجمة الموانئ اليمنية، استنجدوا بالسلطان المملوكي (قانسوة الغوري) في مصر الذي استجاب للدعوة، وبدأ يعد حملة عسكرية إلى اليمن، ودعم السلطان العثماني (بايزيد) تلك الاستعدادات المملوكية (مجانا) بالأدوات اللازمة لبناء السفن الحربية والذخائر وألّف بحار عثماني، ولكن فشل الهجوم البرتغالي وتأخر وصول الحملة المملوكية، جعل السلطان عامر بن عبدالوهاب يغير موقفه من الحملة القادمة ويرفض استقبالها؛ رغم أنه في رسالة استنجاهه كان قد وافق على إقامة قواعد بحرية للمماليك للدفاع عن السواحل اليمنية (يقال إن مستشاريه أقنعوه بذلك خوفا من دخول البلاد تحت سيطرة المماليك بينما كان هو موافقا)

2. اصطدم الطاهريون بالحملة المملوكية.. وانتبه الإمام الهادي شرف الدين حالة العداء بين السلطان

عامر الطاهري عدوه التاريخي والمماليك فقام بالاتصال بالمماليك لتشجيعهم على النزول إلى السواحل اليمنية للقضاء على حكم السلطان عامر! وبالطبع رحب المماليك بذلك.. (ربما احتراما للإمام شرف الدين باعتباره من أئمة الزيدية الكارهين لأي غزو خارجي وليتحووا له الفرصة مستقبلا لمقاتلتهم باعتبارهم غزاة لأرض اليمن الميمون)!

3. لم يقتصر دور الإمام شرف الدين في تحريض المماليك على غزو اليمن على الكلام، بل باءرربما من باب واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الفعل وكتب إلى قائد الحملة (حسين الكردي) عارضا عليه إمداده بالجنود المماليك حتى يتمكن من محاربة الطاهريين على أن يتكفل الإمام بمرتباتهم واحتياجاتهم طوال مدة إقامتهم معه.. ولم ينس أن يتهم (عامر) بالخيانة والتعاون مع البرتغاليين لزيادة إثارة المماليك ضده وتطبيقا لمبدأ الخروج على الظالم.. ومرة ثانية وافق (الكردي) على طلب الإمام!

4. الأشراف الحاكمون في جيزان اتصلوا أيضا بالسلطان الغوري وشجعوه على إرسال حملة إلى اليمن للقضاء على السلطان عامر الذي كان يعترف بحكمهم مقابل خراج سنوي.. لكنهم طمعوا في التخلص منه بواسطة المماليك (الغزاة)! وعندما وصلوا إلى جيزان أرسل أميرها أخاه (عز الدين

هذه هي إذا القراءة غير المتحيزة لجزء من تاريخ اليمن الميمون؛ فالذين قاتلوا الغزو الخارجي هم الأئمة وأتباع طائفتهم صفا واحدا متلاحما.. وحكاية الصف الواحد المتلاحم ضد التدخل سوف نرى بعد قليل حقيقتها المضحكة.. لكن نرى من الضروري عتاب القاضي إبراهيم الذي لم ينتبه إلى أنه بتقرير هذا الحكم قد سقط أو كبا كبوطة طائفية لا تتناسب مع حديثه وكلامه الدائم عن وجوب احترام المذاهب الأخرى.. فهو في هذا الحكم يجرّد الآخرين وينفي عنهم (فضيلة) مواجهة التدخل الخارجي ويقصرها على الأئمة وأتباع مذهبهم وقبائلهم ومشائخها والفكر والفقهاء الزيدي المستقل! وللأسف الشديد.. فإن تاريخ اليمن في تلك الفترة لا يصدق كلام الوزير.. فأبرز من قاتل المماليك مثلا هم الطاهريون بينما كان (الأئمة) يدعمون (الغزو الخارجي) كما سنرى.. وحتى في الفترات التي قاتل فيها بعض الأئمة المماليك والعثمانيين كان هناك من أبنائهم وأشقائهم ومن الطائفة المباركة من يدعم (الغزاة الخارجيين) كما سنرى أيضا. بعد قليل!

هذه الأحكام دفعنا لإعادة قراءة بعض الكتب التي تناولت الفترات الزمنية التي تعرضت فيها اليمن للغزو والتدخل الخارجي، والقاضي إبراهيم يقصد بها مجيء قوات المماليك والعثمانيين.. بالإضافة إلى محاولات البرتغاليين لاحتلال موانئ السواحل الجنوبية لليمن وصولا إلى الاحتلال البريطاني لعدن وامتداد نفوذه بعد ذلك لكل المنطقة الشرقية من اليمن وصولا إلى حضرموت والمهرة.

ونحن لا نتفق مع (الوزير) في توصيف مجيء المماليك والعثمانيين ضمنا بأنه غزو أو احتلال كالبرتغاليين والإنجليز.. فأولئك جيوش مسلمين تابعة لدول إسلامية جاءت إلى اليمن بدعوة من حكام يمينيين بعضهم من آل رسول الله والطائفة الزيدية المباركة بعد أن تعرضت اليمن على التوالي لخطر الغزو البرتغالي والبريطاني.. ولا توجد أدلة على أن اليمنيين أو بعض حكامهم هنا وهناك عندما اصطدموا بهم تعاملوا معهم كأنهم كالكوى النصرانية.. وشواهد لا تعد ولا تحصى تؤكد ذلك سواء في الاتفاقيات التي حدثت في فترات متفرقة واعترف فيها الحكام اليمنيون من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم بتبعيةهم للدولة العثمانية وتخصيص الخطبة لسلطانيتها.. أو في فترات الهدوء والاستقرار التي كانت تشهدا اليمن عندما يتولى حكمها ولاة عثمانيون أنكباء وصالحون فيخضع الجميع لهم دون اعتبار لشنشات الغزو والاحتلال!

ولأن هذه الكلمات ليست بحثا تاريخيا حول تلك الفترة وما جرى فيها، فإننا لا نستطيع إلا أن نقدم للقراء الكرام معلومات مركزة حول كيف تعامل حكام اليمن المتصارعين فيما بينهم مع الوجود المملوكي العثماني.. ومن الذي قاومهم وساندهم وقاتل معهم.. وسوف يكتشف القارئ أن كلام الوزير الذي بدأنا به المقال مجرد عصبية مذهبية ونخيط طائفي يعتريه في أجواء أحداث صعدة الدامية.. وهذا لأننا نحسن به الظن، وإلا فإن آخرين قد يعتبرونها ثمرة لتربية وتعبئة قديمة! وما سنذكره ليس سرا بل يمكن الرجوع إليه في كتب مثل (فترة الفوضى وعودة الأتراك للحرازي، ويوميات صنعاء في القرن الحادي عشر للجرافي.. والفتح العثماني الأول لليمن للدكتور (سيد مصطفى سالم) وهو قد اعتمد في دراسته القيمة على مراجع يمنية قديمة وخاصة مؤلفين لا يمكن اتهامهم بالعداء للطائفة الزيدية المباركة، وكذلك كتاب الحكم العثماني في اليمن 1872-1918 للدكتور فاروق أباطة) واختصارا للكلام.. إقرأوا ما يلي:

1. عندما عجز الطاهريون بقيادة عامر بن

عندما جاء المماليك والعثمانيون وجدوا من الأئمة من يقف ويحارب معهم.. ويحرضهم ضد الحكام الآخرين المعارضين.. وتآمر الأب على ابنه والأخ على أخيه رغم انتمائهم لأسرة واحدة ومذهب واحد!